الذبابة لا تموت في الطين

قصة بقلم احمد حاكم الشريف

دخل الى حجرة مكتبه في الصباح ، الساعة تعدت التاسعة بقليل، لكنه لا يشعر بأي نشاط ، كان مرهقا من تأثير سهرة الامس مع زملائه الجدد ، واعصابه مشدودة كالقوس ، اقل حركة تكفي لانطلاق السهم . يبدو ان عبده التمورجي لاحظ ذلك ـ وله في مثل هذه الامور باع طويل فرأى ان السلامة في الابتعاد عنه وتجنب ثورته ، لم يجرؤ حتى على الاقتراب منه ليلقي عليه تحية الصباح .

وجلس الى مكتبه بانفعال ، ينفخ بملء فمه في ضيق ، ويرسم خطوطا بسبابة يده اليمنى على غطاء المكتب ، ويفتش في الادراج عن شيء ، اي شيء يسليه في هذا اليوم ، ويدفع عنه سأم العمل الذي احاط به في الايام القليلة الماضية ، منذ جاء الى هذا المكان ، رغما عنه. قد يكون في الامكان دفع الملل مرة او مرتين ، ويأتي الفرج بعد ذلك ، ويتحول العسر الى يسر ، وتنقشع السحابة التي تحجب عنه الشمس ، ولكن وقته كله سار على هذا المنوال ، بلا اية جدة او تغيير .

لم يجد شيئا ما ذا قيمة يمكن ان يلفت النظر . درج به اوراق مهملة و « روشتات » قديمة ، تركها سلفه له ، واخر به صور لتحاليل طبية واستمارات خالية ، كان قد اتخذ منها في الايام السابقة اداة للتسلية ، يكتب فيها اسمه ، ويبتكر امضاءات جديدة ، ويرسم صورا لفتيات عاريات حاول ان يجعلهن جميلات ، ولكن ضعفه في الرسم اتاح له ان يتصرف كما يشاء في مسخ المخلوقات . اغلق الدرجين في نفاد صبر ، واراح ظهره على مسند المقعد يريد ان يطرد الهواء المحجوز في رئتيه ، ويلتقط الهواء النقي من جديد . لكنه احس بصلابة المقعد تتحالف مع برودة المعدن لتضايقه اكثر مما لو كانت منفردة ، فقام يتمشى ، يذرع ـ كعادته ـ ارض الحجرة جيئة وذهابا . في الرواح يقابله الدولاب بزجاجه اللامع ، والحقن مرصوصة في داخله ، كأنها جيش من الدمى التي يعبث بها الاطفال مرتين على الاكثر ، ثم يملأونها بعد ذلك . وادوات الاسعاف السريع من صبغة يود وقطن وشاش ، وعلب البرشام وغيرها من الادوية . نظرة واحدة القاها على الدولاب في رواحه ، جعلته يشعر بالملل من جديد ، استدار راجعا ليجد المكتب الذي هرب منه ، والكرسي الصلب ينتظره ببرودته وصلابته ، ونتيجة عليها صورة الملك ، بطربوش فاقع الاحمرار ، يكاد يميل من نشوة العظمة وجلال السلطان ، وصدره مزدحم باوسمة ونياشين لا حصر لها ، في الايام القليلة الماضية التي قضاها في هذه الحجرة ، منذ ان تسلم عمله الجديد ، تأمل صورة الملك ، وتأمل المكتب والدولاب ، والستارة المجاورة للباب ، حتى شبع . وكلما تأملها من جديد ، جاءه احساس الشبعان الذي يريد ان يتقيأ . اقبل على النافذة يتأمل ذبابة تصارع زجاج النافذة لتخرج ، ترى امامها الافق فسيحا ، والطريق ممتدا ، ومع ذلك لا تستطيع التقدم ، فتكاد تجن ، وتسرف في الطنين ، فكر في ان يفتح لها زجاج النافذة ويطلق سراحها ، وينقذها من عذاب الحيرة ، وبدلا من ان يطلب عبده التمورجي ليقوم بهذه المهمة برز امامه سؤال هام : ما الذي اغرى هذه الذبابة بدخول الاماكن النظيفة ، انها تولد في الطين ، فلماذا لا تعيش وتموت ايضا في الطين . عد لعن فكرة اطلاق سراحها ، وعاد الى مكتبه وهو يبتسم ، ويتصور انه قام بعمل ما ، وهمس وهو يجلس : « تستاهل » وراح يستمع الى الطنين ، كأنه سيمفونية رائعة ، ويراقب صراع الذبابة مع خداع اللوح الزجاجي ، ويضحك بصوت عال، ويهز ساقيه في حركات رتيبة متشابهة ، دون ان يعرف على وجه التحديد ، هل هذا التصرف راجع الى التشفي من الذبابة ، ام انه يريد به بعث الدفء في قدميه الباردتين . اخرج من جيبه خطابا وصله امس من احد اصدقائه ، واخذ يتسلى بقضم جوانب الظرف ، وقراءة ما عليه من عنوان : « الدكتور احمد فؤاد . طبيب مركز البلينا » ـ وجه قبلي ـ . قطع عليه القراءة ، أو التسلية بمعنى اصح ، دخول عبده التمورجي بعد ان طرق الباب ، ووقف بجانب الستارة ، صامتا لا يتكلم ، وهو متشاغل عنه بقراءة الخطاب ، واخيرا صاح فيه بصوت اقرب الى الامر ، دون ان ينظر اليه :

ـ عايز ايه ..

ولم يفاجأ عبده باللهجة الآمرة المتعالية ، لقد عاش حياته كلها يسمعها عشرات المرات كل يوم ، حتى صار يألفها ، ويعتاد عليها ، لكنه لاحظ ان الدكتور الجديد ، اكثر شدة عن سابقيه الذين مروا عليه في المركز .

ـ يا افندم النهارده يوم الكشف .. يوم الكشف على الـ ...

وفكر عبده في كلمة يقولها، تقوم مقام الحقيقة ، وفي نفس الوقت لا تجرح شعور الدكتور الجديد . لم يسعفه لسانه ، فاحتار ، و«تلجلج» ولم يجد شيئا يخرجه منهذا المأزق ، سوى « الرخص » التي جمعها منهن ، قدمها للدكتور الذيراح يتأملها في عدم مبالاة ، يؤكد ذلك تشاغله في قضم جوانب الظرف حتى الان ، وهز قدميه المستمر ، ومع انه توقف عن ذلك كله ، واندمجفي تأمل الرخص ، الا ان الكلماتخرجت من فمه في تكاسل :

اسرع عبده ينفذ الامر ، وابتسم الدكتور احمد وهو يفرك يديه في راحة بعد ان وضع خطاب صديقه في جيبه . اخيرا وجد ما يسليه، ولا قرف الذبابة وطنينها المزعج ، ولا تعب « التمشية » ، ولا رتابة منظر محتويات الحجرة ، الدولاب، والمكتب ، وصورة الملك . قلب الرخص بين يديه ، يتأمل صور صاحباتها في تقزز ، ويسأل نفسه في دهشة : هل يمكن لهذه الاشكال القذرة ان تثير رغبة الرجال ، اي رجال ، ولو كانوا من الفلاحين ؟ لكنه توقف عند صورة واحدة منهن ، جعلته يسخر من نفسه بعض الشيء .ويلومها لانها وجهت اليه مثل هذا السؤال ، ويتحداها أن تتأمل معه هذه الصورة ، حتى لا تتسرع مرة اخرى في الحكم . اخذ يعيد ترتيبالرخص ، ولم ينس ان يحتفظ بواحدة منها في النهاية . وكان قد بدأ يحس بضياع السأم نسبيا ، ويحلم بشيء يشغله عما هو فيه من ضيق، فالنساء وان كن اكثر شكاية وتوجعا من الرجال ، عندما يدخلن الى الطبيب ، الا ان حديثهن لا يخلو من تسلية، وقد كان في حاجةالى من يسليه . الان فقط ، وبهذه المناسبة ، تذكر تصرفاته مع هذا الصنف من النساء عندما كان في « سنة الامتياز » بمستشفى القصر العيني . كان يبدي لهن احتقارا لا حد له .احيانا يتهكم عليهن في ازدراء ، واحيانا اخرى يدق المكتب بقبضة يده، ويصرخ بصوت عال ، لمجرد ان واحدة منهن، اقتربت منه اكثر من اللازم ، كان يعتبرهن ذبابا يتوالد في البرك ، ويحبو على اكوام الزبالة ليزعج الناس بطنينه ، وما زال على رأيه حتى الان ، ولم يحاول ولو مرة واحدة ان يعرف الظروف التي دفعتهنالىهذا الطريق ورغم كل هذا كان يحس بالندم في اوقات كثيرة على تصرفاته معهن، ولم ينم ليلة كاملة في سنة الامتياز وهو يفكر في ذلك .. وفي الصباح حاول ان يعرف من اصدقائه معلومات عنهن .. وفي النهايةتأكد انها مخلوقات ضعيفة متخاذلة لا تستحق الاحترام ..

تحرك الباب ، وحدثت ضجة خلف الستارة ، ثم عاد الى معلاق.

وتقدمت الحالة الاولى ، تترنح في مشيتها كأنها واقعة تحت تأثير مخدر ، تقدمت حتى كادت تلامس المكتب ، فاشار اليها بالابتعاد .

القى عليها نظرة سريعة ، جمعت مع ذلك كل الازدراء الذي يبديه لهن ، ثم وقع على الرخصة ،وتركها تنصرف .

كان يعلم مقدما انها مريضة باكثر من مرض ، ولكن لماذا يتعب نفسه ويرهق اعصابه في معالجة هذا الصنف القذر ؟ لقد اختار هذا الطريق لنفسه ، فلا اقل من انيموت ، كما عاش ، في الظين . لا اقل من ان يريح الناس منه.

وتكرر هذا المشهد ثلاثين مرة ، تدخل الواحدة منهن بجلباب اسود طويل ، تسبقها رائحة القرويات ، العينان زائغتان ، تدوران في الحجرة كأنما تبحثان عن شيء ضاع منهما ، او تتوقعان هجوما من شخص ما ، والشفة السفلى دائما مرتخية متدلية الى اسفل ، كأنها لعبة افسدها الاستعمال وتعطل « الزمبرك » الذي كان يشدها الى اعلى ، وخلاف الوجه لا يظهر سوى الكفين والكعبين .

شعر بالارهاق يمتص كل هدوئه ، وهو يستقبل الحالة الاخيرة وبدلا من السأم اخذ الصداع يتسلل الى رأسه ، وبدأت عيناه تدمعان، كأنما تحالفتا مع الصداع ضده ، والساعة ما زالت تتحرك ببطء نحو الحادية عشرة ، والوقت امامه طويل يحمل معه المتاعب ، سوف يقضيه في سأم يضاعف من عدد الساعات ، ويشحنها بالعذاب . سيعود للذبابه ، يراقبها وهي تصارع خداع اللوح الزجاجي ، ويعود ايضا لتأمل الدولاب الزجاجي ، ومكتبه بالخطوط الغامضة التي يرسمها بسبابته فوقه ، بالمحتويات القديمة التي تضمها ادراجه ، وسيعود ايضا لتأمل صاحب الطربوش المائل والنياشين المتعددة . لا بأس من قضاء الوقت مع الحالة الاخيرة ..

دخلت عليه ، فراح يتأملها وهو متعب ، في صمت ، كانت هي صاحبة « الرخصة » التي احتفظ بها حتى النهاية ، ولكن ما اكثر ما تخطىء الصور عندما يخدعها الضوء وتخذلها براعة العصور ، وما اقساها عندما تحاول ـ من غير قصد ـ ان تمسخ الحقيقة ، كانت الحالة الاخيرة تقف على بعد ، ويبدو ان ذكاءها هداها الى ذلك حتى لاتثير غضب الطبيب ، وقد شعر معها بالراحة التي افتقدها مع الباقيات . ومن ينظر اليها لاول وهلة يظن انها تشابه زميلاتها ، وتكاد تكون « نسخة بالكربون» منهن ، ولكن اذا امعن النظر وجد الاختلاف واضحا . جلبابها اسود طويل ، فيها من رائحة القرية عطر ازهارها البرية التي لم يقربها احد، عيناها مركزتان على المكتب في تحد، وان كان يداخلهما شيء من الذلة والانكسار ، شفتها السفلى مشدودة الى اعلى ، تزمها حينا ، وتضغط عليها باسنانها حينا اخر .

قال لها ـ محاولا تبديد الوقت بعد ان تنبه الى انه يتأملها ويطيل النظر اليها :

ـ اسمك ايه .. ؟

فاختلجت شفتاها في شبه رعشة ، وضاعت « الزمة » التي كانت تربطهما ، وتدلت الشفة السفلى في استرخاء ، وراح هو يراقب كل ذلك بنظرته المحتقرة المتعالية ، وينتظر الرد ، ويترقب سماعه منها. كان يعرف مقدما ان اسمها « ناعسة » وانها اجملهن واكثرهن شهرة ، منذ جاء الى الصعيد واستلم العمل، وهو يسمع عنها ، يبدو أن هذا هو سبب دلالها وايثارها الصمت ، ولكن مع من ؟ ضاق ذرعا بها،وتجمع الارهاق والصداع في قبضة يده وهي تهوي الى المكتب :

ـ باقول اسمك ايه ...

ورأى الاختلاجة هذه المرة في عينيها . وقبل هذه اللحظة لم يكن يتوقع ان شيئا ما سيحدث بهذه الصورة ، وعلى هذه الدرجة من الاهمية وليس في طاقة الانسان ان يتنبأ في مثل هذا الموقف ، حتى لو رأى في نفسه القدرة على ذلك لما توقع ما حدث ، هناك كائنات حية كان يعتقد انها اعتادت على الالم ، حتى اصبحت لا تحس به ، اما الان فقد تغير عنده هذا الاعتقاد ،وانقلبت مفهوماته القديمة رأسا على عقب ،بعد ان رأى هذه الاختلاجة في عينيها ، كانت قد اكثرت من « الكحل » فيهما، فسال جزء منه مع دموعها وافسد زينتها ، وفي دقيقة كانت صفحة وجهها قد تغيرت : سار خطان من الدموع في طريق متعرج انتهى بهما الى اسفل الذقن ، حيث تم بينهما اللقاء وبدأت تشهق مرات سريعة متوالية، وسمعها بعد ذلك تبكي بصوت مسموع، كان واضحا انها كتمت شعورها بطريقة غير متوقعة .

وقبل ان يتمالك نفسه ليواجه الموقف ، فوجيء بعبده التمورجي يهجم عليها ويحاول انتزاعها من مكانها والقاءها في الخارج ، مفاجأة اخرى لا تقل في غرابتها عن الاولى لم يره وهو يفتح الباب ويدخل ولو كان رآه فعلا لما استطاع ان يمنعه لان الامور تمت بسرعة يبدو انه سمع صوت بكائها فقام بهذا التصرف الذي ظن انه من واجبه ، تشبثت «ناعسة» بمكانها ، فصفعها عبده ، وهي تقاومه بكل ما مع المرأة من اسلحة ، والدكتور احمد يقاوم رغبة قوية في دخيلة نفسه ، اوشكت على الظهور، ويسأل نفسه : هل هي الدوافع القديمة التي كانت تثور في داخله ، عندما كان بمستشفى القصر العيني ؟ والا فما سر احساسه بتأنيب الضمير ، لانه تسبب في كل هذا .

حاول ان يبدو هادئا ، وهو يتكلم ، حتى لا يلاحظ عليه عبده اي شيء :

ـ سيبها يا عبده .. واخرج انت بره ..

فاطاع الامر ، واغلق خلفه الباب ، وهو يحاول ان يخفي نظرة استغراب . واجهشت هي بالبكاء من جديد ، ولكن في صوت منخفض هذه المرة .. خافت ان يهجم عليها عبده للمرة الثانية ..

ولم يكن هذا في صالح الدكتور باي حال ، فهو وان كان يتأثر ببكاء النساء عامة ، الان البكاء الخافت له عنده وقع خاص ، لا يكتفي باذابة القشرة المتعالية من فوق عينيه فقط ، وانما يهدم كل الاستحكامات التي يرتكز اليها في تصرفاته . لهذا فلم يكن غريبا ان يقوم من مكانه ، ويتجه الى الدولاب ويخرج منه ادوات الاسعاف .. ليواجه خطا رفيعا من الدم كان قد بدأ يتدلى من فمها ، ويختلط مع الدموع .

ـ حكم الزمان علي يا سعادة لفندي ..

اهتز كيانه رغما عنه وهو يسمعها تنطق بهذه الجملة ، ولكنه استمر في عمله ، يمسح اثار الدم من فها ، و « الكحل » من عينيها ، وخديها ،وبدت له في النهاية اجمل بكثير عن ذي قبل ، كصفاء المرضى وهم في دور النقاهة بعد زوال المرض . اخذ يعاملها بالفعل كما لو كانت مريضة ، ربت على كتفها وهو يقول في رقة :

ـ مالكيش شغلانه غير دي يا « ناعسه » ... ؟

سكتت فترة قصيرة من الزمن ، فترة ما عاد بعدها يغضب ويثور لو طالت حتى الى ساعة ، ظن في خلالها انها عادت الى سابق عهدها ، الى الصمت الفامض الحزين،ولكن فمها تحرك بعد برهة ، وخرج منه صوت متقطع ، يأتي عادة عقب البكاء ، كلماته متعثرة ممزقة كأنما تفترسها نوازع الكبرياء ..

ـ ياما اشتغلت يا بيه ، من صغري عايشه في نار ، وكل يوم في الغيط ، اشيل سبخ وتراب ، وتوبي مترقع ، ابوي خدوه في « التار » واخوي بقي يعذبني ،هربت ع البندر ..

كان بدي اعيش في امان ، واخاصم البتاو والبس حرير يضوي ، وخفت اموت م الجوع .. »

وقاطعها الدكتور احمد وهو يطلب منها ان تجلس على الكرسي وتهدىء نفسها ، حتى يستطيع الكشف عليها . وضع السماعة على صدرها ، دقات القلب غير منتظمة ، اظافر يديها بيضاء ، رجح ان تكون مصابة بالديدان الى جانب كونها قطعا مصابة بمرض تناسلي ..

كانت الذبابة ما زالت تصارع خداع اللوح الزجاجي ، عندما خرجت ناعسة وقد سحب الدكتور منها الرخصة ، وامر بتحويلها الى المستشفى الاميري .

وفي خارج الحجرة كان عبده التمورجي يضرب كفا بكف ويضحك وهو في غاية العجب لان الدكتور احمد استدعاه ، وطلب منه جمع الرخص ، للكشف على المومسات من جديد !

القاهرة

احمد هاشم الشريف